(١٤)

الإنسان
بين اللطيف والكثيف في دناه
عبد لحقي معناه في لانهائي الحياة

حديث الجمعة

٢٢ ربيع الآخر ١٣٨٢ هـ - ٢١ سبتمبر ١٩٦٢ م

الإنسان ما بين دنيين من دناه، بلطيفه وكثيفه لمعناه، خلقا لله بكثيفه في كثيفها، وبلطيفه في لطيفها، دنيا لأخرى، وعاجلة لآجلة في أيهما تواجد، وبأي الصورتين وجد. فدنياه في كثافته أخراها لطيفه في دار لطافته، وبمرجعه لدنيا كثافته تصبح الآخرة لدنيا لطافته. يتواجد لطيفه من كثيفه، كما يتواجد كثيفه من لطيفه. فالأولى والآخرة وصف فيه وحاله له، ويوم يجمع في إحداهما إلى حاله بها حالا له متابِعا أو متَابعا في الأخرى، يكون له في ذلك قيامه، وخلته، ورفقته من حال إلى حال، من نقص إلى تكامل أو كمال، بمعاني العبد والرب لأمريه، فإذا كان بأصله في لطيفه، كان بحال العبد له في كثيفه، وإذا كان أصله في كثيفه كان بحال العبد في لطيفه. إذا عرفنا ذلك، وقرأنا الكتاب، واستمعنا إلى البيان من حديث رسول الله أدركنا ما أراده الكتاب، وما هدف إليه الرسول. أليس آدم يوم سجدت له الملائكة في وجودها اللطيف كان موجودا في الأرض خليفة في وجوده الكثيف! أليس الإنسان على الأرض في وجوده الكثيف، وهو يطلب الأب الكبير الواسع في وجوده اللطيف، يلحقه ربه وأصله بلطيفه، فيلحق منه الأبصار، فيكشف عنه غطاؤه، فيبصر من لا تلحقه الأبصار وهو يلحق الأبصار وهو اللطيف الخبير! فيسجد بكثيفه لمعبوده ولطيفه، أقرب إليه من حبل الوريد، على كل نفس قائم حبيبا خليلا. ألم يضرب لنا بعيسى المثل لذلك؟ به كان آدم المسجود له في وجوده اللطيف من ملائكته من الكلمات في موجودها الكثيف.

إن وصف الرب ووصف العبد لا يتوقف على تواجد لطيفه أو تواجد كثيفه. فإذا كان آدم خليفة الله في الأرض تسجد له الملائكة وهي كيان نوراني لطيف، كان في معاني الرب أو المعلم أو السيد أو الراعي أو الأب لها، وكانت بسجودها في معاني العبد له. وإذا كان آدم بكثيفه يطلب من تخلق هو

من لطيفه ومن لطيف قديمه، أوجده على صورته في سبق وجود بكثيفه ولطيفه عبدا له، بذلك كان قديم معناه من الإنسان هو معاني الرب له، مع بقاء وصف الرب له على من كان منه وسجد له، وعلى من سجد لمن كان منه وسُجد له، من لطيف وكثيف الكائنات منه.

إذن نستطيع أن نقول ونحن في طمأنينة اليقين إن الإنسان رب الإنسان، وإن الإنسان عبد الإنسان بصرف النظر عن كثيفه ولطيفه في القيام. إذا أدركنا هذا المعنى عرفنا قول رسول الله: من كنت مولاه فعلي مولاه، إنسان في كثيفه اختار لنفسه إنسانا في كثيفه لإنسانية في كثيفها، وقول الكتاب: النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم، أب إنساني في كثيفه يُعرف من وراء حجاب من خلة من أمهات في كثيفها لأبناء في كثيفهم، وأدركنا هدي الإحاطة: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله. يا أيها الذين آمنوا بالله لطيفا خبيرا يتخلل الأشياء ويظهر بها ويظهرها، باطنا لها وظاهرا له، اتقوا هذا الواسع العليم الذي لا يحاط به والذي لا يدرك منه إلا وجه له، ولا يشهد إلا بوجه يصطفيه، ولا ظهور له بوجهه السرمدي الخاص فلا وجه له يمكن أن يدرك لوجوهه إلا وجها لوجه لمن عليه قام، أما في عمومه فكل شيء مدرك فهو له وجه. وليس هناك ما هو أبرز وأقوى وأكثر تعبيرا عن ظهوره من ظهوره بالإنسان. اتقوا الله، اتقوا هذه العظمة، قدروا الله حق قدره وآمنوا بوجه بينكم في وجود كثيف رسولا من أنفسكم متواجدا معكم على صورتكم، يعبر بقيامه في صورتكم وهو الحق من ربكم، يعبر عنكم بمعاني الحق من الله، ما تابعتموه وآمنتم به إيمانا بأنفسكم وجها لله لوجه الله وحقا لكم، فتكونون على معناه قدرة لكم، أظهرناه في أحوالكم وقسونا عليه في أحواله من أجلكم حتى يكون أسوة لكم في كبير أموركم باطنه من الحق وظاهره من الخلق، عنوانا على أن باطن الخلق هو الحق وظاهر الحق هم الخلق، فلا يتخذ بعضكم بعضا أربابا من دون الله. الحق مع الخلق قائم على كل نفس، ومن ورائها محيط، وأقرب إليها من حبل الوريد، ومعها أينما كانت، هو باطنها، وهي لباطنها ظاهره، فلِمَ تغيبون الله وتبعدونه عن أوانيكم، وتبعدونه عن معانيكم؟ تبعدونه عن أوانيكم وتمنعون الماعون، تُصلون وأنتم عن معنى الصلاة ساهون، وما كانت الصلاة إلا صلةً برب المصلي، يصلي الرب على عبده من داخل بيته، كما يصلي العبد لربه متجها لوجه قبلته ربا لأهل بيتها، حوله يطوف الأبناء، هذا يَصلُ ربه بافتقاره وادكاره، وهذا يصل عبده برضائه واصطفائه.

{إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما}[1]، {هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور}[2]. {وصل عليهم فان صلاتك سكن لهم}[3]. وعلى مثال مما كان في كثيفه في كثيف البشرية على مواصلة ودوام يتجدد ويتكاثر في تجدده بجديده. وعلى مثال مما هو بقديمه في لطيف البشرية يتصاعد إلى عوالم لطافتها طبقا فوق طبق شهيدا على الشهداء،

في كثيفها يتخلقون ويتواجدون، وإليه في لطيفه يرجعون وله يتابعون، أمة وسطا بين قديم سبقه لا بدء له، وجديد يأتي لا انقضاء ولا انتهاء له، بقائم ثابت لا غيبة له.

إن لفظ الله اسم لعلم دل على المعروف المعلوم هو الإنسان في دلالته على الإنسان كائن من عبد ورب. فالإنسان له وصف العبد كما له وصف الرب، لا هو بالرب ولا هو بالعبد، العبد فيه صفاته وأسماؤه وتجلياته وتواجداته، والرب فيه جماعه، وبيته، وعالمه، وواحديته، وأحديته، ومحصلته، ومعناه. من فرّق بين العبد وربه ومن فرّق العبد عن ربه أخطأ السبيل، وأشرك العقيدة، وما قام في لا إله إلا الله، وما وحد الله، وإن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، وكيفما يشاء، ووقتما يشاء، غلبت فيه رحمته عدله، وأوقف عدله عذابه حتى يقضي، وسبقت مغفرته قضاءه، وردت رحمته عقابه، فما ضاع فيه ضائع ولا فقد فيه مفقود. من طلب الله وجده، ومن غفل عنه أمهله، ومن وجد الله عشقه، ومن عشق الله وحده، ومن وحده قتله بنفسه، ومن قتله الله بنفسه كانت على الله ديته وهو الذي ينصف من نفسه ويعدل في أمره، ومن كانت على الله ديته كانت نفس الله ديته، ما زال الناس بمعاني الخلق لهم يتقربون إلى الله باطنا لهم بما فرضه عليهم، وبما فرضوه على أنفسهم، حتى يُحيي الله به جوارحهم، وحتى به يحييهم فيكونهم وقد كانوه، ويتواجدهم وقد تواجدوه، لا فرق بينهم وبينه، ولا عازل يحول بينهم وبينه وجوها له، وصفات فيه، وجوارح لذاته ومعانيه.

هذا هو الإنسان بين دنييه من دنيا كثافته، ودنيا لطافته، يتواجد بلطيفه من كثيفه عبدا لرب، ويتواجد بكثيفه من اللطيف عبدا لرب ما رضي لنفسه في الله معاني العبد له. تأملوا الرسول وهو العبد له إذ يقول: إن الله يخلق من الصلاة عَلَيَّ ملكا يقول اللهم صلي على عبدك فلان، كما صلى على نبيك إلى أن تقوم الساعة، وتأملوه وهو يقول: (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)[٤]، إذ يجعل من الكل أربابا ومن الكل عبيدا، فيكشف للإنسان عن نفسه جامعا لوصف العبد والرب في عمله ومسئوليته...

إن أنفاس الإنسان بذكر الله خالقة، وإن نوايا الإنسان بالعزيمة مع الله خالقة، ولحجب الغيب خارقة، ولذوات الكائنات من الخلق طارقة، والى قلوب الخلق نافذة. أفمن جعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها! إن الله بالإنسان للإنسان ينور الأفئدة، ويشعل سرج الصدور، وينفخ في أسوار الذوات فيحيي القلوب، ويزكي النفوس، ويحرر العقول، ويمكِن الأرواح، ويخضع الأشباح، ويطور الأجساد، ويظهر لما فيها لمن فيها من آيات، فيجعل من ذوات الخلائق عروشا للحقائق، ويجعل من العمل والاستقامة طرائق للنجاة والسلامة، ويجعل من الناس باصطفائه

أوادم للناس وكلمات لله، وأرواحا لقدسه، وآيات لقدرته. ما ينسخ من آية أو ينسها يأتي بخير منها أو مثلها، لا تنقطع عن التواجد آياته، ولا يتعطل في السموات والأرض عن التتابع كلماته عباد مكرمون، ذكر محدث، الكل له في السموات أو في الأرض عبد، لا يفارقه الوصف، ولا يلقى فيه عبد باسم وجهه وذاته إلا عبدا.. رفعنا بعضكم فوق بعض درجات.. في دنياكم لا شرف لعربي على أعجمي إلا بالتقوى. التقوى تميز بينكم وتحكم صفوفكم طبقا فوق طبق ترفعون، وطبقا تحت طبق تبعثون. وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا، تدانيكم طبقا بعد طبق، وتتعالى منكم طبقا فوق طبق عباد مكرمون، فلا تغيبوا أخراكم عن دنياكم، ولا تنظروا في أخراكم إلا دنيا مثل دنياكم (الظاهر مرآة الباطن)[٥]، واعلموا أن الله معكم في هذه الدنيا، ومعكم في الدنى الأخرى من الآخرة، لا تكسب لكم معيته في دنيا من عاجلة أو آخرة من آجلة إلا بعملكم وفناء أنفسكم عنكم إلى اسمه. إن اسم الله غنيمة المؤمن، إن وجه الله نهاية الموحد، إن تقوى الله بداية المسلم، إن الإسلام لوجه الله بداية الحياة للنفس، وبداية الصحو للعقل، وبداية الحرية والسعادة للروح. لا إسلام إلا بإسلام إنسان لإنسان، ولا إيمان إلا في إيمان إنسان بإنسان، ولا معرفة إلا في معرفة إنسان عن إنسان، في حياة الكثافة من كثيف الإنسان، أو في حياة اللطافة من لطيف الإنسان. {إن لك في النهار سبحا طويلا}[٦]. {وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون}[٧]. إن الإنسان بذلك يخرج من معاني الكثافة واللطافة خلقا إلى معاني الإرادة والمشيئة والمعنى حقا، فإذا ما تحرر من لطيف كثافته ومن كثيف لطافته إلى مجردات معناه، قامت فيه إرادة هي إرادة الله، وكان في مشيئته مشيئة الله، وفي معناه معاني الله، فكان بكثيفه ولطيفه عبد معناه، ووجه مولاه، شاهدا ومشهودا، في معنى الحياة ومعنى الوجود، وهذا ما أريد بالدخول في حصن لا إله إلا الله، وشهادة أنه لا إله إلا الله، يوم يتوحد قائلها مع حاملها إليه، رسول الله وعبد الله، فيشهد وحدانيته مع رسول الله، يوم يشهد أنه محمدا رسول الله، ويعلم أنه على ما شهد مع رسول الله حقا مرسلا من الواسع العليم. هكذا يكون المعراج، وهكذا عرج عبد الله ورسوله إلينا يوم توحد في معراجه مع عبد الله ورسول الله إليه، ويوم حمله رسول الله إليه إلى من أرسله منه فوجده حقا من الله، من الله المعروف له بعقيدته، الموصوف في وعيه بتنزيهه الواسع العليم، فعرف أنه وقد أخرجه الله رسولا له أنه ما عرف فيه إلا رفيقا أعلى ورسولا له، وأنه ما جاءه من الله إلا رسولا له، وما حمله إلا إلى رسول له، فعرف أن المرسل إليه عبد لله يوم عرف نفسه، وعرف أن الرسول إليه والرب له عبد لله يوم توحد معه، وعرف أن مرسله والرب الأعلى له عبد لله، يوم لقيه وفقد شخصيته في حضرته فعَلمه كلاما يخاطبه به، فعرف أن العبودية لله تجمع في معناها سائر الحقائق من العبد والرب والأعلى، وتشرُف في مرتقاها بمزيد في معناها بما تقدم عن معناها لمعانيها من الأعلى إلى الأدنى في مطلق الحياة، وأنها حق يداني بالحق معاني

الحق ويتجلاها، عرفها مرسلا ورسولا ومرسلا إليه، فقال للناس: المرء على دين خليله فلينظر أيكم من يخالل، كما قال: المؤمن مرآة أخيه، واعلموا أن المؤمن مرآة المؤمن، أُعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه.. فإن لم تكن تراه فإنه يراك، فلا أقل من أن تؤمنه رائيا لك، وإن قبلت أنه يُرى وكشف عنك غطاءك فاعبده مرئيا منك بك، وإلا فانظره فيما حولك أينما تولى فوجهه. وإن انعكست إليه بصيرتك فابحث عنه في نفسك.. وفي أنفسكم أفلا تبصرون، فما كان باطنك لظاهرك إلا وجهه، ما كذب الفؤاد ما رأى، وما كذب الفؤاد عند كل من رأى ما رأى، وكثير فيه من رأى وعلى بصيرة تحدث وهَدى، فأحيِ ضميرك، وأحيِ فؤادك لترى، واقدح زناد فكرك، وأشعل سراج قلبك، وأنر مشكاة صدرك، وقم بربك، حسبك الله ونعم الوكيل، اجعل منه عليك وكيلا عنك فيما تفعل وفيما تقوم، اعتقده في الصغير والكبير لك من أمرك، يكن لك في الصغير والكبير لك من أمرك على ما اعتقدت.

إذا عرفنا الدين، وجعلنا مما سمعنا عماد الدين، فكان الدين، ووعي الدين، وفقه الدين، وطريق الدين غايتنا فقد أسلمنا، واستقبلنا الإيمان واليقين، ولم نيأس من كشف القناع عنا، لنرى من هو معنا الذي يتوحدنا ويجمعنا، والذي نشهده ويشهدنا، فنعلم أنه لا إله إلا الله، ونقوم في محمد حق الله ورسول الله عبادا لله ونكون من أمته، فنشهدنا محمدا عبد الله، فنشهد أن محمدا رسول الله عند من لم يشهده محمدا رسول الله، لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

اللهم إننا قلنا لا إله إلا الله، وقلنا إن محمدا رسول الله، اللهم فحقق لنا القول وأشهدنا أنه لا إله إلا الله، وأشهدنا أن محمدا رسول الله. اللهم إنا تبنا إليك فاقبل توبتنا، ورجعنا إليك فاقبل رجعتنا، وأصلح لنا دنيانا واجعل منها لنا مزرعة لأخرانا، وأصلحنا لرحمتك ومغفرتك حكاما ومحكومين، أئمة ومتابعين.

أضواء على الطريق

سئل رجل من أئمة القوم: (هل رأيت رسول الله)؟ فقال (لو غاب عني رسول الله طرفة عين ما عددت نفسي من المسلمين)[٨] يعني بذلك أنه شهد ما صار إليه في رسول الله قياما له ووجها لله.

مصادر التوثيق والتحقيق

١ سورة الأحزاب - ٥٦
٢ سورة الأحزاب - ٤٣
٣ سورة التوبة - ١٠٣

٤ من الحديث الشريف: "ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وهي مسئولة عنه، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته". أخرجه البخاري ومسلم، وأبو داود، وأحمد، والترمذي.

٥ إشارة إلى مقولة من خطبة للإمام عليّ ـ كرم الله وجهه ـ:"...اعلم أنّ لكلّ ظاهر باطناً على مثاله، فما طاب ظاهره طاب باطنه، وما خبث ظاهره خبث باطنه...". بحار الأنوار. المكتبة الشيعية.

٦ سورة المزمل - ٧

٧ سورة التوبة - ١٠٥

٨ عبارة صوفية ذكر البعض أنها لسيدنا أبي الحسن الشاذلي، وقال بعض آخر إنها لسيدنا المرسي أبي العباس.